سقطرى.. جزيرة منسية ولا تواجد لقواعد عسكرية إماراتية أو سعودية فيها

الأمناء قام بالرحلة/ آرجون نيل
عليم - تابع الرحلة/ أشرف محمد:

إنها من أبرز الأراضي النائية التي تأمل أن تصبح نقطة نشطة للسياحة البيئية، إنها جوهرة المحيط الهندي التي تبحث عن التنمية والحفاظ عليها، والاستثمار لها، إنها سقطرى.

منذ الهبوط على مهبط الطائرات على الشاطئ إلى الطريق الوعرة حتى قرية نائية، ومع تسلق 360 مترًا تحت أشعة الشمس الحارقة، ثم رؤية السواد المخيف لكهف مليء بالهوابط مع نقوش عمرها آلاف السنين، كان هناك شعور مثير بالامتياز يغمر مجموعتنا بالتواجد بجزيرة سقطرى.

رأينا مدخل كهف هوك مفتوحا وكأنه تثاؤب مع عمقه الداخلي الداكن الذي يمتد إلى عمق 3 كيلومترات في قمة الجبل الذي صعدناه للتو. كان الداخل دليلًا على ما يجعل وجهتنا مميزة للغاية: الكتابة والرسوم على الكهوف باللغات القديمة من مناطق متنوعة مثل الهند وجنوب إفريقيا. تمت زيارة هذه الجزيرة من قبل أقدم الحضارات، ومع ذلك فهي تعتبر اليوم واحدة من أكثر الوجهات الوعرة للوصول اليها.

لطالما كانت جزيرة سقطرى، وهي جزء من أرخبيل سقطرى، هاجسًا متخصصًا لعشاق السفر والأكاديميين. لقد أكسبتها الأنواع الفريدة والمناظر الطبيعية الخلابة وغير المطورة والثقافة المحلية المتمردة لقب «غالاباغوس المحيط الهندي». أطلق عليها المدونون اسم الجوهرة الخفية لبحر العرب، أو «المكان الأكثر غرابة في العالم».

على مدى (4) أيام اكتشفنا شواطئها البرية واستكشفنا تراثها الثقافي القديم والتقينا بالسكان المحليين للاستماع إلى حياتهم وآمالهم في وطنهم. وكذلك أيضا للتعرف على كيفية الحفاظ على أنظمتها البيئية الرائعة وتطوير المنطقة غير المعروفة كوجهة سياحية.

تم منح جزيرة سقطرى صفة التراث العالمي من مركز اليونسكو للتراث في عام 2008م، وهي أقرب جغرافيًا إلى الصومال بالبر الرئيسي الأفريقي وأقرب سياسيًا للممالك الغنية بالنفط في شبه الجزيرة العربية.

ما تعلمناه هو أن هناك، بالواقع، وجهان لسقطرى عند زيارتها.. هناك جزيرة شبه أسطورية بمناظرها المريخية وأنواعها النباتية والحيوانية المستوطنة وتاريخها الطبيعي. ثم هناك سقطرى، مع كل التحديات المرتبطة بالعزلة والاعتماد على المساعدات الخارجية.

منذ عام 2014م، هز البر الرئيسي اليمني حرب أهلية طاحنة بدأت عندما أطاحت الحركة الانقلابية الحوثية المدعومة إيرانيًا بالحكومة واستولت على صنعاء. مما أدى إلى التدخل بقيادة السعودية، وبدعم من الإمارات والدول الغربية بما في ذلك الولايات المتحدة والمملكة المتحدة، لاستعادة الحكومة المعترف بها دوليًا.

التقى بنا نائب المحافظ صالح علي السقطري لشرح حالة الجزيرة. أخبرنا أن سكان الجزيرة وجدوا أنفسهم «بين المطرقة والسندان» مع الحرب الأهلية في البر الرئيسي ومع انتشار جائحة كورونا. يقول السقطري: «هذه جزيرة منسية ولم ينتبه لها أحد».

وأضاف أن «الدخل المنخفض في هذه المنطقة هو نتيجة الحرب الدائرة في البر الرئيسي وتدخل الحوثيين». «الناس في البر الرئيسي يعانون وكذلك سكان سقطرى يعانون». ومع ذلك، فإنه على بعد 375 كيلومترًا جنوبًا ببحر العرب، كان الدليل الوحيد الذي رأيناه على الحرب هو نقطة تفتيش عسكرية عرضية، يحرسها شبان متواضعي المظهر على كراسي للتخييم.

الجزيرة بها بنية تحتية سياحية شحيحة، مع وجود فندق بسيط واحد فقط بالعاصمة حديبو، وهي بلدة صغيرة تصطف على جانبيها المتاجر التي تبيع التوابل والبقالة والملابس المحلية والعطور. أكبر مطعم، اسمه شبوة، يقدم السمك المشوي الطازج والمأكولات المحلية الشهية - بما في ذلك كعكة لذيذة مصنوعة من التمر المقشور والقشدة السميكة والعسل السقطري.

يميل المسافرون إلى التخييم بجميع أنحاء الجزيرة، والبقاء على أراضي السكان المحليين أثناء التنزه والتسلق والسباحة عبر العديد من مناطق الجذب الطبيعية. لكن حتى هذا المصدر الضئيل للإيرادات جف.

قبل 2010م، كان يزور حوالي 2000 سائح جزيرة سقطرى كل عام؛ في الـ(12) شهرًا الماضية، لم يتمكن سوى 120 شخصًا فقط من القدوم.

أجهضت الحرب أي خطط لتطوير صناعة السياحة بالجزيرة. وقال نائب المحافظ إنه لا توجد حاليا مشاريع سياحية بتصريح تخطيط لها.

على أي حال، هو يرى ان مستقبل صناعة السياحة كمعسكرات تخييم متحركة، على غرار ماساي مارا بدلاً من فنادق الخمس نجوم، واقعي، ويحث أي شركة لديها رؤية وخبرة على تلبية استغلال الظروف بالجزيرة للتقدم للعمل.

سياحة معسكر التخييم المتحرك لها مزاياها، فهي منخفضة الصيانة وليس لديها احتياجات ضخمة من الطاقة أو البنية التحتية، مما قد يهدد الاحتياطيات الطبيعية البكر.

كان السكان المحليون الذين التقيناهم والذين قبلوا استضافة الزوار الذين أحالهم لهم مكتب السياحة المركزي إلى أراضيهم، سعداء بلعب دور المضيف وكسب بعض الأموال الإضافية.

تبين أن الشائعات حول خطط الإماراتيين لتحويل المكان إلى «إيبيزا العربية» لا أساس لها من الصحة، وقد كان هناك رجل أعمال كويتي يُزعم أنه خطط لبناء فندق فخم على الساحل ولكنه اختفى.

يفتخر الساحل الشمالي لسقطرى بالحياة البحرية المتنوعة والشعاب المرجانية الشاسعة والمتجددة. وهناك واحدة من أكثر مواقعها جاذبية وهي بحيرة ديتوا، مع كثبان رملية وشواطئ بيضاء مثل أي مكان في منطقة البحر الكاريبي، ويمكنك رؤية الدلافين تقفز في البحر عبر الأفق.

سبحنا عند غروب الشمس عبر البحيرة، كان الماء دافئًا بشكل رائع مع صبغة زرقاء غنية، لوح لنا السكان المحليون من أكواخهم المطلة على البحر، انضممنا لاحقًا إلى عائلة واحدة لتناول كوب من الشاي الأسود الحلو أثناء الإفطار برمضان.

محمد نسيم، 37 عامًا، هو مدير إحدى المحميات البحرية بالجزيرة الواقعة بالقرب من البحيرة، وأعرب عن أسفه لانتهاء عائدات السياحة بالجزيرة، قال إن الأعمال أصبحت أكثر صعوبة منذ الحرب الأهلية.

وأضاف: «اعتدنا على استضافة 60-30 سائحًا يوميًا بالمحمية، الآن نعاني الافتقار للبنية التحتية والزائرين وان وظيفته اصبحت شبه مستحيلة».

يقول نسيم: «نحن لا نحاول إنشاء فنادق كبيرة هنا، ما زلنا نحاول حماية التنوع الطبيعي للمنطقة».

سقطرى، ربما أكثر من البر الرئيسي، لديها تاريخ طويل باستقبال القوى الأجنبية مع نواياها الاقتصادية والسياسية، اشتهى الرومان العصارة الحمراء لأشجار دم الأخوين التي على شكل مظلة، والتي أصبحت الآن مرادفة تقريبًا لصورة الجزيرة، كطلاء حرب لمصارعيهم.

يقال إن ستراديفاريوس قد استخدمها لصناعة آلات الكمان الخاصة به، في القرن التاسع عشر، كانت بريطانيا تعتزم استخدام المكان كقاعدة بحرية يمكن من خلالها القيام بدوريات في خليج عدن ذي الأهمية الاستراتيجية، قبل أن تختار عدن نفسها.

الآن، يكثر الحديث عن القوى الإقليمية التي تهتم بسقطرى، كانت مجموعتنا من الإندبندنت موجودة هناك بدعوة من البعثة السعودية التي رافقنا ممثلوها في زيارتنا.

أخبروني أنه لم تكن هناك عمليات عسكرية وأن وجودهم على نطاق ضيق كان لمساعدة المجتمع المحلي ودعم عمل البرنامج السعودي للتنمية وإعادة الإعمار في اليمن (SDRPY).

سلطوا الضوء على كيفية استثمارهم في محافظة تجاهلتها الحكومة اليمنية لفترة طويلة في صنعاء، حيث قاموا ببناء أربع مدارس جديدة، وتجديد المستشفى المحلي وتأثيثه بسيارة إسعاف، وربط 45000 شخص (من أصل 60 ألف نسمة في المنطقة) إلى المياه العذبة الجارية، حيث كان الكثير من قبل يعتمدون على الآبار.

وعلى عكس التقارير التي تفيد بأن الإمارات خططت لتحويل الجزيرة إلى قاعدة عسكرية أو وجهة لقضاء العطلات، أخبرنا المتحدث باسم البرنامج السعودي لتنمية وإعمار اليمن أنه لا يوجد سوى ستة إماراتيين بالجزيرة، يبدو أنهم جميعهم يعملون في القطاع الإنساني.

كانت الدبابات السوفيتية الصدئة من طراز T-53 والتي ظلت متمركزة عبر الساحل بين حديبو وقلنسية بمثابة تذكير بأن هذه الجزيرة المنعزلة والغريبة ظهرت منذ فترة طويلة على الخرائط مع نقطة الهدف فوقها، وكأحد مخلفات التدخلات الأجنبية في الماضي.

على الرغم من هذا التاريخ، كان من الواضح أن العديد من السقطريين لديهم قدر كبير من حسن النية تجاه أحدث قوة أجنبية دخلت إلى جزيرتهم. لاحظنا ذلك بكثير من الأحيان أثناء قيادتنا للسيارة عبر القرى النائية، حيث تم بناء المنازل من الحجر والخشب والخرسانة، وكلها بأبواب مزخرفة بشكل جميل، كان الأطفال يركضون وهم يصرخون لنا «مرحبا سعود».

أعرب أحد زعماء القبائل بقرية قريبة من هضبة دكسام، التي تشتهر بإطلالاتها على مضيق وادي ديرهور، وهو واد من الحجر الجيري يذكرك بفوهة القمر، وفدان من أشجار دم الأخوين، عن امتنانه للدعم الإنساني. حيث ان ابنه تقدم بطلب للحصول على إحدى المنح الدراسية المقدمة لمتابعة دراسته الجامعية بالمملكة العربية السعودية.

أخبرنا الشيخ محمد سالم القباني، 55 عامًا، وهو يتناول فنجانًا من الشاي، أنه على رغم أن مجتمعه لم يشهد مجاعة مثلما حدث مع العديد من مواطنيهم بالبر الرئيسي، فإن ارتفاع أسعار النفط (المصدر الأساسي لإيرادات الدولة) وانخفاض التدفقات التجارية من عدن إلى سقطرى نتيجة للصراع المستمر، فرض ضغوطًا اقتصادية على سكان الجزر، لا سيما بسبب ندرة الوقود المتزايدة.

خلال زيارتنا للجزيرة، وهي بحجم لونغ آيلاند في نيويورك أو كورنوال في المملكة المتحدة، صادفنا مجموعتين أخريين فقط من السياح، كلاهما من الأوروبيين والأمريكيين الشماليين الذين سافروا على متن رحلة تجارية وحيدة، من أبو ظبي.

كانت إحدى المجموعات تخيم في قلنسية، ثاني أكبر بلدة بالجزيرة، بعد التنزه والتخييم البري بالجبال وسط الجزيرة لبضعة أيام. كانوا جميعًا يعملون لدى وكالة تابعة للأمم المتحدة ومقرهم الصومال أو اليمن.

أخبرني أحد الزوار، دانيال نورفولك، من كندا، عبر الهاتف أنه انجذب إلى مدى «عدم الاتصال بالشبكة» بالمكان. «إنها واحدة من تلك الأماكن الأسطورية، أقرب إلى البر الصومالي منها إلى اليمن، وهي محصورة بين هاتين الحالتين المأساويتين وهي بقعة الهدوء بينهم».

يقول «لم أكن أعرف أن هناك مثل هذا التنوع من الساحل إلى قمم الجبال. لقد وجدنا أنها استراحة رائعة.. التنقل عبر تضاريس مختلفة: المشي لمسافات طويلة والسباحة والغطس. وأضاف: «الشعب السقطري يتمتع بروح الدعابة الرائعة. يشعر الناس بالبرد. نحن فقط عوالم متباعدة».

كانت محمية Homhil من أبرز معالمها، وتحديداً الرحلة عبر النتوءات الصخرية، ومنحدرات الأنهار الجافة، وشجيرات الألوة فيرا الأصلية النادرة، جنبًا إلى جنب مع صفوف الأشجار الزجاجة الوردية المتعرجة. في نهاية التسلق، الذي استغرق منا حوالي 30 دقيقة، تظهر حافة منحدر مع حوض سباحة لا متناهي يتشكل بشكل طبيعي يغذيه شلال. المياه العذبة ذو اللون الأزرق المخضر بمياهه المنعشة والمبهجة.

مثل الآخرين، لم يتوقع نورفولك مستقبلا للسياحة الجماعية بالجزيرة. «لا يمكن لشركات السياحة الكبرى التعامل مع مدى تخلف البنية التحتية». لقد تمكن من زيارة الجزيرة من خلال وكالة «أهلا بكم في سقطرى»، التي أسسها إيطاليان زاراها.

كتب لي أحدهم، نيكولو، عبر WhatsApp (لا توجد إشارة هاتف تقريبًا واتصالات WiFi تكون ضعيفة) ليقول «لقد جلبنا الى هنا تفرد هذا المكان ونعلم أنه نفس الشيء حدث بالنسبة للمسافرين الجريئين الذين قرروا الانضمام إلى جولاتنا لاكتشاف الجزيرة».

وشدد على جانب «السياحة البيئية» و«الاستدامة» بالرحلات، لكنه اعترف بأن الجزيرة لم يتم الحفاظ عليها بشكل جيد. فقد كتب يقول «لسوء الحظ، في الوقت الحاضر نظرًا للوضع الحالي وغياب الحكومة، لا توجد أنشطة (حماية) جارية. كما يمكنك أن تتخيل، إنها ليست أولوية بالنسبة لهم».

ان هذا واضح للعيان. حيث تتناثر القمامة، ومعظمها من الزجاجات البلاستيكية، عبر الطرق المتعرجة بين المدن والجبال تتجول الماعز البرية أو جزءًا من قطعان المزارعين بالمنطقة وترعى على نباتات نادرة (37% من أنواع نباتات سقطرى لا تنمو في أي مكان آخر بالعالم) بما في ذلك شجرة دم الأخوين الأسطورية، والتي تستغرق مئات السنين لتنمو من شجيرة، وقد اقتصرت تقريبًا على أعلى الهضاب ودور حضانة آمنة بالجزيرة.

وبينما تظل الجزيرة أحد مواقع التراث التابعة لليونسكو، تحذر المنظمة: «في حين أن الموائل البرية والبحرية للممتلكات لا تزال في حالة جيدة بشكل عام، يحتاج التخطيط الإداري للتعامل بشكل أكثر فعالية مع التهديدات الحالية بما في ذلك الطرقات والرعي الجائر والحصاد العشوائي للأراضي البرية والمخلوقات البحرية الطبيعية.وتشمل التهديدات المصادر المستقبلية المحتملة للسياحة».

حتى الآن، لا تزال جاذبية الجزيرة عبارة عن قسوة محضة. فهي لديها تاريخ يضاهي زنجبار في تنزانيا، والشواطئ لمنافسة لامو في كينيا، وكلاهما من النقاط السياحية الساخنة والنشطة جنوبًا في المحيط الهندي، لكن دفء سكانها المحليين وتنوع محمياتها الطبيعية وقربها يجعلها استثنائية.

قال مرشدنا، أدهم عبدالله، الذي تجنب بحكمة المشي لمسافة 10 كيلومترات إلى كهوف الحق في منتصف النهار، إنه ممتن للاستثمار الإماراتي والسعودي في مسقط رأسه، لكنه ظل حذرًا بشأن مستقبل الجزيرة كوجهة سياحية فاخرة، مفضلاً كثيرا طبيعتها ككنز طبيعي خام.

يقول أدهم: «منذ ست أو سبع سنوات، كانت الكهرباء تعمل فقط من الخامسة صباحًا إلى الخامسة مساءً، لكنها تعمل الآن 24 ساعة»، واوضح لنا «ما يجعل سقطرى مميزة للغاية هو بيئتها الطبيعية، نحن نفتقد الأشياء الصغيرة فقط، مثل الفنادق والمطاعم».

*(يُترجم اسم سقطرى إما إلى «الجنة» أو «متجر الراتنج»).